الفصل السادس

أهل الذمة في مجتمع صدر الإسلام

إقبال أهل الذمة على اعتناق الإسلام :

أدى الإسلام إلى امتزاج واندماج العرب بالعناصر الأخـرى فـي الأمصار المفتوحة. فقد منح الإسلام العناصر المختلفة التي كانـت تـسكن الأمصار ما تحتاجه من لمثل العليا التي اكتسبوا بها من الحمية ما استعدوا به للتضحية بأنفسهم في سبيله. وقد منحت هذه المثل العليا أهالي الأمـصار مشاعر مشتركة وآمالاً مشتركة وإيماناً يندفع به كل واحد من أبنائهـا فـي التضحية بنفسه في سبيل نصرة. وكانت الدولة التي أسسها العرب هي الدولة العظمى الوحيدة التي قامت باسم الدين والتي اشتقت منـه جميـع نظمهـا السياسية والاجتماعية [١٧٥] .

هل نشر العرب الإسلام بالقوة وحد الـسيف ؟ والجـواب بـالنفي، فالإسلام هو الدين الوحيد الذي لم يفرض بالقوة، بل أقبل الناس على اعتناقه بإرادتهم واختيارهم[١٧٦] فإنه من المستحيل أن يفوز الإسلام بقلوب النـاس بالسيف. ويعترف(جوستاف لوبون) [١٧٧] بذلك فيقول: " والحق أن الأمم لم تعرف فاتحين راحمين متسامحين مثل العرب، ولا ديناً سمحًا مثل ديـنهم" . ولم يعمل العرب لنشر الإسلام ولم يكن عندهم مبشرون، ولا كانوا يحسنون

---

[١٧٥] لوبون: حضارة العرب ص ٧١٨- ٧١٩.

[١٧٦] أرنولد: الدعوة إلى الإسلام ص ١٨٢.

[١٧٧] حضارة العرب ص ٧٢٠.

التبشير، والذين كانوا يحسنون التبشير منهم هم المسيحيون الـــذين أســـلموا والذين تعلموا التبشير من المسيحية.

ما أسباب الانتشار السريع الذي صادف الإسلام .

يعلل (جوستاف لوبون) [١٧٨] هذا الانتشار السريع بسهولة للإســـلام التي كانت سر قوته، فهو يخلو مما نراه في الأديان الأخرى ويأباه الـــذوق السليم من المتناقضات والغوامض، وكل مسلم يستطيع أن يعـــرف أصـــول الإسلام في بضع كلمات سهلة، على عكس المسيحي الذي لا يستطيع حديثا عن التثليث وغيره من الغوامض التي لا يعرفها غير علماء اللاهوت.

أما المؤرخ(ستانلى لينبول) فهو يتساءل عن سبب سرعة انتـــشار الإسلام بين أهل الذمة : هل هو القانون الأخلاقى الذي تحويه العقيدة، ومـــا يعد الإسلام المؤمنين به من جنات. ولكن (لينبول) يعـــود فيقـــول أن هـــذه الأسباب كلها كافية لتخلق عدوًا قويًا، فلم تكن ولكن العامل الأول في سرعة الانتشار هو أن الإسلام لم يقابل عدوًا قويًا فلم تكن اليهوديـــة أو المـــسيحية بالقوة التي حول دون انتشاره، بل لم يكن هناك ما يمنع هذا الانتشار، وكان هذا سبب انتصار الإسلام، هذا بجانب ما حواه الإسلام من مبادئ وتعـــاليم سامية.

ويعلل المورخ (دوزى) [١٧٩] إقبال أهل الذمة على الإسلام بأنهم رأوا فيه اليسر والبساطة، مما لم يألفوه في دياناتهم السابقة.

---

[١١٨] حضارة العرب ص ٥٨.

[١١٩] نظرات في تاريخ الإسلام ص ٤١١- ٤١٢.

أما (توماس أرنولد) [١٨٠] فيرجع سبب انتشار الإسلام إلى عـــاملين: أولهما نجاح العرب الواسع الذي زعزع عقيدة المسيحيين، فقد رأى أن هذه الفتوح قد تمت بعون الله، وأن المسلمين قد جمعوا بين النعيم في الدنيا وبين التوفيق الإلهي. أما العامل الثاني، فهو ما كان ينادي به الإسلام من مُثُل عُليا ترمي إلى أخوة المؤمنين كافة في الإسلام.

وينفي (أرنولد) [١٨١] تمامًا أن يكون الاضطهاد هو الدافع لأهل الذمة على اعتناق الإسلام، فيقول: " وإذا نظرنا إلى التسامح الذي امتد على هـــذا النحو إلى رعايا المسلمين من المسيحيين في صدر الحكم الإسلامي، ظهـــر أن الفكرة التي شاعت بأن السيف كان العامل في تحويل الناس إلى الإسلام بعيدة عن التصديق" وينسب (أرنولد) إقبال أهل الذمة على اعتناق الإســـلام، إلى عاملين أولهما تدهور الكنيسة وثانيهما إعجاب أهـــل الذمـــة بالعقيـــدة الإسلامية، فيقول: " ويرى كثير من علماء اللاهوت المـــسيحيين أن حالـــة الكنيسة الشرقية التي تدهورت في ذلك الوقت – مـــن النـــاحيتين الخلقيـــة والروحية – لابد أن تكون قد دفعت كثيرين إلى أن يلتمسوا جوّا روحيًّا أسلم وأصح في ذلك الدين الإسلامي الذي جاءهم وهو في أشد ما تكون الحماسة الغضة قوة وعنفًا".

ويرى المستشرق الإيطالى (كايتانى) أن إقبال أهل الذمة على اعتناق الإسلام كان بسبب أحوال الكنيسة الشرقية، وتعقيد التعاليم المسيحية، فيقول :" أن انتشار الإسلام بين نصارى الكنائس الشرقية إنما كان نتيجة شـــعور باستياء من السفسطة المذهبية التي جلبتها الروح الهيلينيـــة إلـــى اللاهـــوت

---

[١٨٠] الدعوة إلى الإسلام ص ٧٠.

[١٨١] الدعوة إلى الإسلام ص ٨٨.

المسيحي. أما الشرق الذي عرف بحبه للأفكار الواضحة البسيطة فقد كانت الثقافة الهيلينية وبالأغلبية من الوجهة الدينية، لأنها أحالت تعـاليم المـسيح البسيطة السامية إلى عقيدة محفوفة بمـذاهب عويـصة، مليئـة بالـشكوك والشبهات، فأدى ذلك إلى خلق شعور من اليأس بل زعزع أصول العقيـدة الدينية ذاتها فلما أهلت آخر الأمر أنباء الوحي الجديد فجأة من الصحراء، لم تعد تلك المسيحية الشرقية التـي تمزقـت بفعـل الانقـسامات الداخليـة، وتزعزعت قواعدها الأساسية، واستولى على رجالها اليأس والقنوط من مثل هذه الريب، لم تعد المسيحية بعد تلك قادرة على مقاومة إغراء هـذا الـدين الجديد – أي الإسلام – الذي بدد كل الشكوك التافهة، وقدم مزايا مادية جليلة إلى جانب مبادئه الواضحة البسيطة التي لا تقبل الجدل. وحينئذ ترك الشرق المسيح وارتمى في أحضان نبي بلاد العرب" [١٨٢].

وأوضح المؤرخ (كانون تايلور) [١٨٣] فساد العقائد المسيحية، وبين كيف نجح الإسلام في الخلاص من هذا الفساد فقال : "كان أئمة اللاهوت في افريقية والشام قد استبدلوا بديانة المسيح عقائد ميتافيزيقية عويصة، ذلك أنهم حاولوا أن يحاربوا ما ساد هذا العصر من فساد بتوضيح فضل العزوبة في السماء وسمو البكورية إلى مرتبة الملائكة. فكان اعتزال العالم هو الطريق إلى القداسة، والقذارة صفة لطهارة الرهبنة. وكان الناس في الواقع مشركين يعبدون زمرة من الشهداء والقديسين والملائكة، كما كانت الطبقـات العليـا مخنثة يشيع فيها الفساد، والطبقات الوسطى مرهقة بالضرائب، ولـم يكـن للعبيد أمل في حاضرهم ولا مستقبلهم . فأزال الإسلام، بعون من الله ، هذه

---

[١٨٢] الدعوة إلى الإسلام ص ٨٩– ٩٠.

[١٨٣] القى (كانون تايلور) هذا البحث في مؤتمر الكنائس في (ولفير هامبتون) في ٧ أكتوبر سنة ١٨٨٧ .

المجموعة من الفساد والخرافات. لقد كان ثورة على المجادلة الجوفاء فـي العقيدة وحجة قوية ضد تمجيد الرهبانية باعتبارها رأس التقوى. ولقد بـين الإسلام أصول الدين التي تقول بوحدانية الله وعظمته، كما بين أن الله رحيم عادل يدعوا الناس إلى امتثال لأمره والإيمان به وتفويض الأمر إليه. وأعلن الإسلام أن المرء مسئول، وأن هناك حياة آخرة ويومًـا للحـساب، وأعـد للأشرار عقابًا اليمًا، وفرض الصلاة والزكاة والصوم وفعل الخيـر، ونبـذ الفضائل الكاذبة والدجل الديني والنزهات والنزعـات الأخلاقيـة الـضالة وسفسطة المتنازعين في الدين، وأحل الشجاعة محل الرهبنة، ومنح العبـد رجاء، والإنسانية إخاء، ووهب الناس إدراكًا للحقائق الأساسية، التي تقـوم عليها الطبيعة البشرية " [١٨٤].

ويؤكد المؤرخ (توماس أرنولد) [١٨٥] أنه لم تحدث محاولة واحـدة لإرغام أي ذمي على اعتناق الإسلام، فيقول صراحة:" لم نسمع عـن أيـة محاولة لإرغام الطوائف من غير المسلمين على قبول الإسلام، أو عـن أي اضطهاد منظم قصد منه استئصال الدين المسيحي. ولو اختار الخلفاء تنفيـذ إحدى الخطتين لاكتسحوا المسيحية بتلك السهولة التي أقصى بها فرديناند وايزابلا دين الإسلام من أسبانيا، أو الذي جعل به لـويس الرابـع عـشر المذهب البروتستنتي مذهبًا يعاقب عليه متبعوه في فرنسا، أو بتلك الـسهولة التي ظل بها اليهود مُبعدين عن انجلترا مدة خمسين وثلاثمائة سنة. وكانـت الكنائس الشرقية في آسيا قد انعزلت انعزالاً تامًا عن سائر العالم المـسيحي الذي لم يوجد في جميع أنحائه أحد يقف في جـانبهم باعتبـارهم طوائـف خارجة عن الدين. ولهذا فإن مجرد بقاء هذه الكنائس حتى الآن ليحمل فـي

---

[١٨٤] الدعوة إلى الإسلام ص ٩٨.

[١٨٥] الدعوة إلى الإسلام ص ٩٨ – ٩٩ .

طياته الدليل القوى على ما قامت عليه سياسة الحكومات الإســلامية بوجــه عام من تسامح نحوهم".

اعتنق من أهل الذمة في صدر الإسلام العقيدة الإسلامية، ويمكننا أن نكون فكرة عن تحول جموع كثيرة من أهل الذمة إلى الإسلام، إذا علمنا أن إيراد الضرائب في عهد عمر بن الخطاب كان يتراوح بين مائة مليون ومائة وعشرين مليون درهم، بينما هبط في عهد الخليفة الأموي عبد الملــك بــن مروان، أي بعد حوالي خمسين عامًا إلى أربعين مليون درهم.

تعلم أهل الذمة اللغة العربية:

أقبل معظم أهل الذمة على تعلم اللغة العربية، مما أدى إلى التقارب بينهم وبين العرب المسلمين وسائر أهالي الأمصار المفتوحة. واللغة ليــست كلمات أو حروف، بل هي تعبير وشعور، ووحدة اللغة تؤدى إلــى وحــدة الثقافة، وإلى الوحدة العقلية والنفسية، مما يحقق شخصية عربيــة واحــدة. وأدى تعميم استخدام اللغة العربية في هذه الأمــصار إلــى انــدماج ســائر الأجناس على اختلافها اندماجًا قويًا في الحياة القومية التــي كــان يحياهــا العنصر العربي الحاكم [١٨٦]. إذ ربطت اللغة العربية جميع الــبلاد برباــط معنوي [١٨٧] كما أن أهل الأمصار وقد أصبحوا شعبًا إسلاميًا فــإنهم كــانوا يزدادون إسلامية كلما اقتربت لغتهم من لغة القرآن [١٨٨].

---

[١٨٦] جوزى : من تاريخ الحركات الفكرية في الإسلام ص ٥٠.

[١٨٧] ديموميين: النظم الإسلامية ص ١١..

[١٨٨] متى: تاريخ العرب ص جـ١ ص ٩.

أقبل أهل الذمة على تعلم اللغة العربية وإتقانها. فقد كانت رغبة هذه العناصر في قراءة القرآن الكريم، دستور الدولة العربية الإسلامية وتـــولى المناصب من العوامل التي دفعتهم إلى إجادة اللغة العربية [١٨٩] كما كانـــت رحمة العرب الفاتحين بأهل الذمة وتسامحهم من العوامل التي شجعتهم على إتقان اللغة العربية والتمسك بالنظم العربية [١٩٠].

كان قيام إمارة الحيرة العربية على حدود الدولة الفارسية، وإمـــارة الغساسنة العربية على حدود الدولة الرومانية، عاملاً هامًا على بقاء العروبة واللغة العربية والتمكين لها، وكانت الإمارتان قبل الفتوحات الإسلامية على صلة دائمة بالجزيرة العربية .

هل انتشرت اللغة العربية بالقوة وحد السيف ؟

والإجابة على هذا السؤال بالنفي، بل سار العرب في نـــشر لغـــتهم على نفس المنهاج الذي ساروا عليه في نشر دينهم فلم يحارب العرب لغات البلاد الأصلية على رسوخها فيها، بل ساروا في نشر لغتهم بتعقل ورويـــة، وراعى المسلمون سنن الطبيعة والنشوء، وعملت قاعدة الانتخاب الطبيعـــي عملها في اللغة، كما عملت في العناصر، فبقى ما هـــو مفيـــد للنـــاس فـــي مصالحهم على اختلاف نحلهم ومللهم [١٩١].

---

[١٨٩] لوبون: حضارة العرب ص ٧٢٠.

[١٩٠] كرد على : الإسلام والحضارة العربية حـــ ١ ص ١٨٠.

كرد على : الإسلام والحضارة العربية حـــ ١ ص ١٨٠

[١٩١] بارتولد: الحضارة الإسلامية ص ٣٠ .

ويرى المؤرخ (بارتولد) [١٩٢] أن غلبة اللغة العربية كان بالاختيار لا بسلطان الحكومة، ويذكر أن تسامح العرب أدى إلى انتشار اللغة العربية إذ أن العرب لم يعتمدوا على قوة السلاح كالجرمان والمغول والفرس.

وكان أهل الذمة مضطرين إلى تعلم اللغة العربية، فقد كانوا يتصلون بالعرب المسلمين في شئون الزراعة أو الصناعة أو التجارة، كما أدى تعرب الدواوين في عهد الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان إلى انتشار العربيـــة على نطاق واسع بين أهل الذمة، فقد كان عليهم إتقـــان هـــذه اللغـــة حتـــى يحتفظوا بوظائفهم.

تحدث(توماس أرنولد) [١٩٣] عن نتائج انتشار اللغة العربية بين أهل الذمة فقال:" كان لتعميم استعمال اللغة العربية فـــي كافـــة أرجـــاء الـــبلاد الخاضعة للخلافة الإسلامية، وبخاصة المدن والمراكـــز الكبـــرى الاهلـــة بالسكان، كما كان للتماثل الذي تم تدريجيًا في الأخلاق والعادات، والذي أدى في خلال ما يقرب من قرنين إلى اندماج الأجناس المغلوبة على اختلافهـــا اندماجا قويًا في الحياة القومية التي كان يحياها العنصر العربي الحـــاكم – كان لهذا كله من غير شك صدى في الحياة الدينية والفكرية لدى كثير مـــن من أفراد الديانات التي دخلت في حماية العرب الفاتحين. ومن المحتمل جدًا أن تكون الحركة الفكرية التي أثرت في العقيدة الإسلامية تأثيرًا بالغًا، ابتداء من القرن الثاني حتى القرن الخامس للهجرة، فقد أثـــرت فـــي المفكـــرين المسيحيين وصرفتهم عن ديانة كانت روح عقيدتها السائدة تلوح فـــي ذلـــك الوقت أنها عقيدة مستحيلة من الناحية العملية ".

---

[١٩٢] الدعوة إلى الإسلام ص ٩٢.

[١٩٣] .

فرضت اللغة العربية كتابتها على الفرس وغيرهم، وقضت نهائيًـا على الألف باء القديمة لهذه اللغات القديمة. فقد اقتبست اللغة الفارسية ثلـث ألفاظها من اللغة العربية وأضافتها إلى مجموعة كلماتها الهنـدو-أوروبيـة [١٩٤] وكان الزرادشت هم أول من اتخذوا الحروف العربية، وأوجـدوا لغـة فارسية حديثة محتوية على كثير من الكلمات العربية [١٩٥].

أدت إقامة العرب في المدن الإسلامية الجديدة في الأمصار المفتوحة إلى امتزاجهم بأهالي البلاد وأهل الذمة، فقد تعـاونوا جميعًـا فـي الحيـاة الاجتماعية والاقتصادية، ولم تكن عناصر الأمصار المفتوحة غريبة علـى العرب الفاتحين، كما أن فروقهم الدينية لم تقف حائلاً في سبيل تكوين مجتمع سرعان ما تكلم اللغة العربية واعتنق الإسلام [١٩٦].

إقبال أهل الذمة على الحضارة الإسلامية :

ترتبط الحضارة البشرية بالدين، بل هي من خلقه ومـن نتائجـه، فالأديان ليست نظرية فلسفية أو مجرد عقائد أو أعمالاً يخـتص بمعرفتهـا فريق من البشر دون فريق آخر، بل هو وجود اجتماعي واضح يقوم علـى أقدار مشتركة من العلم والعمل والعقائد، يشارك الأفراد فيها جميعًا.

وكان ظهور الإسلام إيذانا بظهور حضارة إسلامية عريقة، فقد عمل الإسلام على تخليص البشر من شوائب ورذائل الجاهلية، ومنح الناس مُـثلاً

---

[١٩٤] ديمومبين : النظم الإسلامية ص ١٢-١٣.

[١٩٥] بارتولد: الحضارة الإسلامية ص ٦٨.

[١٩٦] ديمومبين : النظم الإسلامية ص ٩.

عُليا في السياسة والاجتماع والاقتصاد، وأنار أمامهم السبيل ليـصلوا إلـى الرخاء وإلى السعادة والرفاهية. وانتشرت مراكز الحـضارة فـي العـالم الإسلامي، فكانت هناك دمشق وبغداد والقاهرة وقرطبة، وانتقلت الحـضارة من الشرق الإسلامي إلى القارة الأوروبية بطريق بلاد الأنـدلس وجزيـرة صقلية، ونتيجة اختلاط الشرقيين بالأوروبيين خلال الحروب الصليبية وفي التجارة. وحرصت الحضارة الإسلامية على التجديد والابتكـار، وتجنبـت التقليد والمحاكاة، وأصبح الشرق الإسلامي أستاذًا لأهالي أوروبا، واعترف المفكرون الأوربيون بذلك.

أصبح الطابع البارز للحضارة الإسلامية هو تقديس حريـة الفكـر، وإعزاز حرية الإنسان وكرامته، وتشجيع العلم والمعرفة والنظام، والمساواة بين الناس جميعًا في ظلال إخاء شامل وعدل تـام، وروحانيـة صـافية، واعتزاز بالمُثل العُليا والقيم الأخلاقية السامية.

كانت الحضارات زمن الفتح العربي الإسلامي متقاربة في مختلـف المواطن، فالحضارة الإغريقية غلبت الحضارة الرومانية في القـسطنطينية وهذه أخذت الكثير من الحضارة الفارسية لاتصالهما السياسي والحربي، كما أخذ الفرس عن اليونان من قبل [١٩٧].

وكان الطريق ممهدًا أمام امتزاج الحضارات، ولما كـان العـرب المسلمون وقت الفتوحات أميين فقد اعتمدوا على أهـل الذمـة فـي الإدارة والكتابة والشئون المالية، مما أدى إلى احتكاك واتصال أهل الذمة بالحضارة العربية الإسلامية .

---

[١٩٧] عمر أبو النصر : الحضارة الاموية ص ١٩٤.

وتميزت الفتوح العربية بطابع خاص، لا نجد مثله لـــدى الفـــاتحين الذين جاءوا بعد العرب، فالبرارة الذين استولوا على العالم الروماني والترك وغيرهم، وإن استطاعوا أن يقيموا دولاً عظيمـــة، إلا أنهـــم لـــم يؤســـسوا حضارة، وكانت غاية جهودهم أن يستفيدوا بمشقة من حضارة الأمم التـــي قهروها. ولكن العرب أنشأوا بسرعة حضارة جديدة كثيرة الاختلاف عـــن الحضارات التي ظهرت قبلها، وتمكنوا من حمل العناصر المختلفة الموجودة في الأمصار على اعتناق دينهم وتعلم لغتهم فضلا عن حضارتهم الجديـــدة، ولذا ظل نفوذ العرب بها ثابتا [١٩٨].

كانت حضارة العرب بعد الفتوحات العربيـــة الإســـلامية حـــضارة عظيمة، ويرجع سبب عظمتها إلى عاملين: أولهما بيئة العرب الحديثة التي تتيح للعرب فرصة التحضر و التمدن، وشتان بين الهلال الخـــصيب فـــي العراق والشام ووادي النيل وبين صحراء الجزيرة العربية. و العامل الثاني ذكاء العرب وحضارتهم الإسلامية وثقافتهم الأولى، فقد اســـتطاعوا أن يهضموا ويتمثلوا الحضارات التي وجدوها في الأمصار المفتوحة، في حين فشل غيرهم من الفاتحين، كالبرابرة مثلا، في هضم ما بقي من الحـــضارة اللاتينية[١٩٩].

يرجع إلى العرب الفضل في إنهاء نظام الطبقات البغيض الذي كان موجوداً في معظم الأمصار المفتوحة، وخاصة في الدولـــة الفارسية،فـــضلا عن إخراج الفرس من ظلمات المجوسية إلى نور الإسلام [٢٠٠] .

---

[١٩٨] لوبون : حضارة العرب ص ١٧١ – ١٧٢.

[١٩٩] لوبون : حضارة العرب ص ٧٢١.

[٢٠٠] بارنولد: تاريخ الحضارة الإسلامية ص ٦٤

وصف المؤرخ العربي المسيحي المعاصر (الدكتور فيليب متى)[٢٠١] .

الإسلام بأنه حضارة عامة شاملة، تجعل كل من يعيش تحت سمائها في حرية وصفاء، وعيش غير المسلمين مع المسلمين على قدم المساواة، وتربطهم بروابط المحبة و الأخوة، وقال أن المسيحيين قد استأذنوا السلطات الدينية في أن تكون المواريث في الشرق العربي هي نفس المواريث التي قررها الإسلام، فأذنت السلطات العربية بهذا .

تحدث (لوثرب ستودارد) في كتابه (حاضر العالم الإسلامي)عن الحضارة العربية الإسلامية وازدهارها، وقارن بينها وبين حضارة الغرب، فقال: ما كان العرب قط أمة تحب إراقة الدماء وترغب في الاستلاب و التدمير، بل كانوا على الضد من ذلك، أمة موهوبة عظيمة الأخلاق و السجايا، فوافقت إلى ارتشاف العلوم محسنة في اعتبار نعم التهذيب، تلك النعم التي قد انتهت إليها من الحضارات السالفة، وكان اختلاط بعضهم ببعض سريعًا، وعن هذا الاختلاط نشأت حضارة جديدة وهي الحضارة العربية، ونفخ العرب فيها روحا جديدة فازدهرت وأينعت، مما أدى إلى اتحادها وتماسكها .وقد سارت الممالك الإسلامية في القرون الثلاثة الأولى من تاريخها (٦٥٠-١٠٠م) أحسن سير، فكانت أكثر أصقاع العالم حضارة ورقيًا وتقدمًا وعمرانًا، وما انفك الشرق الإسلامي خلال هذه القرون الثلاثة يرسل على الغرب النصراني نورًا.

وأوضح (جوستاف لوبون) في كتابه (حضارة العرب أثر الفتح الإسلامي في بلاد الشام، فقال :استردت سورية أيام الحكم العربي ما أضاعته من الرخاء منذ زمن طويل، وبلغت درجة رفيعة من الرقي في

---

[٢٠١] فيليب متى : تاريخ العرب .

العهد الأموي والصدر الأول من العهد العباسي، وكان العدل بـين الرعيـة دستور العربي السياسي ، وترك العرب الناس أحرارًا فـي أمـور ديـنهم، وأظل العرب أساقفة الروم ومطرانه اللاتين بحمايتهم، فنال هؤلاء مـا لـم يعرفوه سابقًا من الدعة والطمـأنينة، وبلغت الصناعة والزراعـة درجـة رفيعة في سورية، وازدهرت بسرعة كبريات المدن السورية كالقدس وصور وصيدا ودمشق.

وتحت عنوان (طابع السيادة في الحضارة الإسلامية) ، كتب المؤرخ (توماس أرنولد) [٢٠٢] : أن ما أحرزته سيوف المسلمين من نجـاح واسـع النطاق، قد زعزع عقيدة الشعوب المسيحية التي أصبحت تحـت حكمهـم، ورأت أن هذه الفتوح قد تمت بعون من الله ، وأن المسلمين قد جمعوا بـين النعيم في الدنيا وبين التوفيق الإلهي، وأن إله الحرب لم يجعل النصر إلا في أيدي عباده المختارين، وهكذا ظهر نجاح المسلمين دليلاً على صدق دينهم.

أهل الذمة يساهمون في الحياة الاجتماعية:

العاطفة الاجتماعية هي العنصر الدائم في الشعوب الدينية ، حتـى ليمكن أن نعرف الكائن المتدين بأنه كائن محب للاجتماع، ويـرى (جـان ماري جويو)[٢٠٣] أن اختلاف الأديان أنما يرجع خاصة إلى اختلاف النماذج الاجتماعية.

---

[٢٠٢]) الدعوة إلى الإسلام ص ٩٤.

[٢٠٣]) الدعوة إلى الإسلام ص ٩٤.

أتبع المسلمون سياسة التعايش الديني مما أدى إلى السلام والأمـــن، وقد نص القرآن الكريم على وجوب الحرص على هذا التعـــايش وحـــرص الخلفاء على هذه الروح الطيبة وقد حدثنا تاريخ عمر بن الخطاب بأنـــه قـــد أوصى رجاله بأن يعيشوا وأبناء الديانات الأخرى في وئـــام وســـلام ، وأن ينظروا إلي الإنسانية نظرة مشاركة، وأنها ميراث لكل فرد يعـــيش علـــى الأرض نصيبه منها. كما أعطي عمر أهل بيت المقدس الأمان العام للأرواح والأموال وسائر الملة والكنائس، فأصدر أمرًا مشددًا بألا تسكن الكنـــائس ، وألا ينقص منها، وألا يكره المسيحيون على دينهم، ولا يضار أحد منهم. كما أباح الإسلام للمسلم أن يتزوج بغير المسلمة من أهل الذمة، وجعل لها مـــن الحقوق ما للزوجة المسلمة، فرخص لها بالبقاء على دينها،وعلى معتقداتها، بل وحرم على الزوج أن يكرهها على ترك دينها أو يمنعها من الذهاب إلى معبدها أو كنيستها، ولها الحرية في القيام بشعائر دينها[٢٠٤] .

احتفل أهل الذمة بأعيادهم في جو من الحرية والتـــسامح ، وكـــان المسلمون يشاركون في أعيادهم وخاصة النصارى منهم، فقد كانـــت هـــذه الأعياد فرصة طيبة لنزهة المسلمين، وخاصة أن الأديـــرة كانـــت تحفـــل بالحدائق الغناء والبساتين اليانعة[٢٠٥] ومزج المسلمون بين أعياد المسيحيين وأعياد الفرس، وبين الأعياد المسيحية والفصول، فقالوا أن الفـــصح وقـــت النيروز، والعنصرة وقت الحر، واميلاد وقت البرد، وعيد بزيـــادة وقـــت الأمطار، وعيد الصليب وقت قطاف العنب. ومن أمثال الناس في ذلك :(إذا

---

[٢٠٤]) التعايش الديني في الإسلام ص٣٧.

[٢٠٥]) الشابشتي: الديارات ص٦٠ .

جاء عيد بزيادة فليتخذ البناء زمارة) أي ليمكث كل فرد في بيته، (إذا جـــاء القلندس فتدفأ واحتبس)

عن أبي حنيفة أنه قال: "أما نساؤهم فهن بمنزلة رجالهم في كل شيء، وأما صبيانهم فإنما يكونون مثلهم فيما يجب علـــى الأرض خاصـــة، فأمـــا المواشي وما يمرون به من أموالهم على العاشر فلا شيء فيه عليهم إن أسلم التغلبي أو اشترى مسلم أرضه فإن العشر عليه مضاعفا. على الحال أولى.

ويعلق (ترتون) [٢٠٦] علي ذلك فيقول: والظاهر أن عمر بن الخطاب رأى أنه مما يعيب العرب أن تبقي جماعة منهم على غير الإســـلام، فقـــد أمـــر زياد بن جرير الأسدي متولي الخراج أن يشتد في معاملة التغالبة لأنهم قوم من العرب وليسوا من أهل الكتاب. ولم يكن معنى ذلـــك عـــدم معـــاملتهم بالعدل، بل أن العدالة كانت ملموسة موفورة.

******

[٢٠٦]) أهل الذمة في الإسلام، ص٩٤.